د. وسام جبران

اللعب بلا كلمة أمان: كيف تحوّلت الأنظمة العقائدية إلى طقس خضوع أبدي

مقالة

الناصرة

كانون ثاني 2026

https://gibran-litr.org/essays

Gibran Publishing Literature and Music Online

© 2025. All rights reserved.

اللعب بلا كلمة أمان: كيف تحوّلت الأنظمة العقائدية إلى طقس خضوع أبدي

مقالة

ليست كل أشكال الخضوع عبودية، كما أن ليست كل أشكال السلطة عنفًا. هذه حقيقة بديهية، لكنها تصبح فضيحة أخلاقية حين ننظر إلى الأنظمة العقائدية في منطقتنا: أنظمة تطالب بالخضوع المطلق، وتصرّ في الوقت نفسه على تسميته "إيمانًا"، أو "وطنية"، أو "قدرًا تاريخيًا".

في مقالتها المنشورة على موقع رصيف22، "فنّ الخضوع أو الـ BDSM... الشاعرية المذهلة في فضاء اللعب" (29 أيلول 2025)، تفتح نور حطيط بابًا غير متوقَّع لفهم الخضوع لا بوصفه انكسارًا، بل بوصفه ممارسة جمالية مشروطة .الخضوع، كما تطرحه، لا يحدث إلا داخل فضاء لعب واضح المعالم: هناك أدوار، وطقوس، وسلطة، لكن كل ذلك محكوم بشرط أساسي واحد: القبول الحر، وقابلية الانسحاب.

من هذه النقطة تحديدًا، يمكن قراءة الأنظمة العقائدية لا باعتبارها نقيضًا لهذا الفضاء، بل بوصفها نسخته الأكثر توحشًا: لعبٌ بلا اعتراف بأنه لعب، وخضوع بلا كلمة أمان.

*

في الـ BDSM، كما تصفه نور حطيط، الخضوع فعل واعٍ. لا يولد الإنسان خاضعًا، بل **يقرّر** أن يكون كذلك، داخل علاقة محددة، وزمن محدد، وبقواعد واضحة. السلطة هنا ليست مطلقة، بل متفاوض عليها، وقابلة للتفكيك فور نطق كلمة واحدة.

أما في الأنظمة العقائدية، من البعث الأسدي، إلى نظام الملالي، إلى الصهيونية الدينية، فالأمر معكوس تمامًا. الخضوع ليس فعلًا، بل هوية. ليس تجربة، بل انتماء أبدي. وليس قابلًا للتراجع، لأن التراجع يُعرَّف سلفًا كخيانة، أو رِدّة، أو خروج عن الجماعة.

المفارقة القاتلة أن هذه الأنظمة تطالبك بأن "تؤمن"، لا أن تُكرَه، لكنها في الوقت ذاته تجرّدك من أبسط أدوات الإيمان الحر: الشك، والانسحاب، وإعادة النظر.

*

إذا كان الـ BDSM، في صيغته الأخلاقية، ممارسة جمالية للخضوع المشروط، فإن الأنظمة العقائدية تمارس نقيضه الدقيق :خضوعًا طقسيًا بلا رضى، وبلا حق نجاة.

كل عناصر المشهد متوافرة، بل فائضة: طقوس جماعية تُعاد بلا كلل (أناشيد، شعارات، زيّ موحّد)، مسرحة مفرطة للسلطة (استعراضات، خطابات خلاصية، احتفالات انتصار مؤبّد)، وتقسيم صارم للأدوار (قائد ملهم، جماعة مصطفاة، عدوّ ضروري).

لكن ما يغيب، دائمًا وبشكل ممنهج، هو ما يمنح اللعب معناه: حق الانسحاب، قابلية اللعبة للانتهاء، والاعتراف بأن ما يجري ليس حقيقة مطلقة، بل بناء رمزي قابل للتفكيك.

السياسة هنا لا تقول: لنلعب. بل تقول: هذه هي الحقيقة، ومن يرفضها يُمحى.

*

يكتب **جورج باتاي** عن الجسد بوصفه موقع التجربة القصوى، حيث تتقاطع اللذة والخطر والمعنى، وحيث تُختبَر السيادة الفردية عند حدودها. الجسد عنده ليس وسيلة لتحقيق فكرة، بل حدًّا يقاوم الاختزال.

الأنظمة العقائدية تفعل العكس تمامًا. هي لا ترى في الجسد إلا مادة خامًا لمشروع أعلى: جسد يُنجب للعقيدة، جسد يُقاتل باسم الخلاص، جسد يُعاقَب حين يخرج عن الدور المرسوم له سلفًا.

في سوريا، اختُزل الجسد إلى رقم أو صورة شهيد في خطاب نظام بشار الأسد، حيث لا قيمة للحياة إلا بقدر ما تُقدَّم قربانًا. في إيران، يتحوّل الجسد الأنثوي إلى ساحة صراع ديني دائم، تُقاس فيها الطاعة بالأقمشة (الحجاب) والعقوبات. وفي الصهيونية الدينية، يُمنَح الجسد اليهودي قيمة خلاصية، فيما يُختزل الجسد الفلسطيني إلى فائض تاريخي، قابل للإزالة أو التهميش أو المحو.

هنا لا يعود الجسد مساحة سيادة، بل **ملكية عامة**. ومن يطالب باستعادته، لا يُتَّهَم بالخطأ، بل بالفجور، أو العمالة، أو الكفر.

*

الفرق الجوهري بين فضاء اللعب الذي تشير إليه نور حطيط، وفضاء السلطة العقائدية، ليس في الطقوس أو الأدوار، بل في الصدق. اللعب الحقيقي يقول بوضوح: هذا لعب. أما النظام العقائدي فيقول: هذا قدر.

هنا يتكثّف أخطر أشكال العنف الرمزي: أن تُجبَر على أداء دور، مع إنكار وجود المسرح نفسه. لهذا لم يكن مصادفة أن يكتب روائيون ومفكّرون من داخل هذه السياقات ضد هذا المنطق تحديدًا. **صادق هدايت،** مثلًا، عرّى عبث الطاعة حين تتحوّل إلى فراغ وجودي. **إلياس خوري** فكّك سرديات البطولة التي لا تعيش إلا على أجساد الضحايا. و**عاموس عوز** حذّر، باكرًا وبمرارة، من تحوّل الإيمان إلى أيديولوجيا إقصاء لا ترى الإنسان إلا بوصفه وظيفة في سردية أكبر منه.

جميعهم، بطرق مختلفة، قالوا الشيء نفسه: حين تُقدَّس الفكرة، يُداس الإنسان.

*

إذا كانت الأنظمة العقائدية، كما رأينا، تقوم على تحويل الخضوع إلى طقس أبدي بلا رضى، وعلى مصادرة الجسد بوصفه ملكية عامة، فإنها تحتاج، كي يستمر هذا البناء، إلى ذاتٍ متخيَّلة متماسكة، مطيعة، ومقفلة على معنى واحد. هنا تحديدًا يصبح الفكر التحليلي، وخصوصًا اللّاكاني، خطرًا بنيويًا لا يمكن التهاون معه.

فجاك لاكان لا ينطلق من سؤال الطاعة أو العصيان، بل من تفكيك الفكرة نفسها التي تقوم عليها السلطة العقائدية: فكرة الذات المكتملة. الذات، عند لاكان، ليست وحدة منسجمة، بل كيان منقسم على نفسه، محكوم بنقص لا يُردم، وبرغبة لا يمكن ضبطها أو إشباعها عبر العقيدة أو الدولة أو القائد. لا وجود لمعنى نهائي، ولا لهوية صافية، ولا لرمزيّ يخلو من الشقوق.

هذا بالضبط ما لا تحتمله الأنظمة التي تُقدّس الطقس وتحوّل اللعب إلى قدر. فهي لا تحكم فقط عبر القمع، بل عبر وعد الاكتمال: قائد كامل، أمة واحدة، معنى واحد، وخلاص مؤجَّل لا يتحقق إلا بمزيد من الطاعة.

من هنا، لا تبدو قضية رفاه ناشد، مثلًا، التي اعتقلها نظام البعث السوري بسبب تأسيسها حلقة لاكانية في دمشق، حادثة أمنية عرضية، بل لحظة كاشفة. حلقة قراءة، نقاش في اللغة والرغبة واللاوعي، اشتغال على السؤال بدل اليقين... كل ذلك كان كافيًا ليُقرأ كتهديد وجودي.

فالتحليل اللّاكاني لا ينتج معارضة سياسية مباشرة، لكنه يفعل ما هو أعمق وأخطر: يسحب من السلطة احتكارها للمعنى، ويُعيد الفرد إلى انقسامه، إلى رغبته التي لا يمكن تأميمها، ولا إدخالها في طقس، ولا تحويلها إلى نشيد.

لهذا لا تحتاج الأنظمة العقائدية إلى أن تفهم لاكان كي تقمعه. يكفيها أن تدرك، حدسيًا، أن هذا الفكر ينسف من الأساس منطق الخضوع بلا كلمة أمان. فحيث يوجد لاوعي، لا يمكن للسلطة أن تكون كاملة. وحيث توجد رغبة، لا يمكن للطقس أن يغلق اللعبة إلى الأبد.

*

إذا كان الفكر اللاكاني يفضح استحالة اكتمال الذات، فإنه لا يقف عند هذا الحد، بل يذهب أبعد: إلى تفكيك العلاقة الملتبسة بين القانون واللذة. وهنا يظهر الشبح الذي تكرهه الأنظمة العقائدية أكثر من أي شيء آخر: شبح **الماركيز دي ساد**.

في القراءة اللاكانية الشهيرة لدي ساد، لا يظهر هذا الأخير بوصفه نقيضًا للأخلاق، بل كبوصفه مرآتها المظلمة.

دي ساد لا يهدم القانون؛ هو يأخذه إلى نهايته المنطقية. يفرغ الواجب من أي مضمون إنساني، ويحوّله إلى آلة باردة تُنتج اللّذة عبر الامتثال المطلق.

هنا يدخل إيمانويل كانط إلى المشهد؛ لا بوصفه عدو دي ساد، بل قرينه الخفي. كانط يقول: افعل واجبك لا لأنك ترغب، بل لأن الواجب واجب. دي ساد يهمس: حسنًا، فلنستمتع إذًا بالواجب ذاته.

لاكان هو من التقط هذه العلاقة الصادمة، حين قال، ضمنيًا، إن دي ساد هو الحقيقة المكبوتة للأخلاق الكانطية.

فحين يُفصل القانون عن الرغبة، وحين يُقدَّس الواجب بوصفه غاية في ذاته، يتحوّل الامتثال إلى مصدر لذّة مرضية، ويصبح العنف نتيجة منطقية لا انحرافًا.